الفكر الإداري والإسلام

الأستاذ / إبراهيم عبد الله السلموني
مراقب الشئون المالية بالكلية

تقديم :

إن الالتزام بالمنهج الإسلامي ركيزة أساسية من الركائز التي تقوم عليها أية دراسة علمية في أي بلد إسلامي — ولعل من حسن الطالع أن يواكب النهضة العلمية الحديثة تلك الصحوة العارمة التي تجتاح غالبية الدول الإسلامية في الوقت الحاضر والتي تدعو إلى الرجوع إلى أحكام الشريعة الإسلامية والالتزام بمنهج إسلامي يحقق معايير التقدم الاقتصادي والاجتماعي وما يتطلبه من تغيير جذري في أنماط وأساليب الإدارة حتى لا تتخلف الدول الإسلامية عن مسايرة التقدم السريع في مختلف المجالات بدعوى عدم مسايرة أحكام الدين للجديد من العلوم .

البحث عن منهج إسلامي في مختلف العلوم :

— إن البحث عن منهج إسلامي في مختلف المجالات ليس من الأمور المستعصية لو حاول علماؤنا أن يدرسوا أحكام الدين كل فيما تخصص فيه وأن يوائم بينها وبين ما اكتسبه من ثقافات غربية أو شرقية وهذا يتطلب بطبيعة الحال أن يقترب علماؤنا ورجال العلم فينا من منهج الإسلام بعد أن ابتعدوا عنه لفترات كانوا فيها مشغولين بدراساتهم وتعايشهم في أوساط غير مسلمة أبعدتهم عن منهج الإسلام في كل ما يمارسونه من أعمال في إطار المناهج الغربية التي تأثروا بها ولا تتفق علماً وتطبيقاً منهج الإسلام .

ولعل هذه الظاهرة قد ساعدت من جهة أخرى على دفع الكثيرين من العلماء المسلمين إلى البحث عن صيغ عملية للتوفيق بين الفكر المعاصر والفكر الإسلامي في مختلف العلوم وبذلك أصبح من الواجب مؤازرة العلماء وتشجيعهم على مداومة البحث حتى تجد البحوث مكانها وسط هذه المنافسة الشرسة وخاصة المغرضة منها .

النظم الإسلامية خالدة .

— إن الإسلام وضع نظاماً خالداً يصلح لكل العصور جاداً صادقاً يحترم جميع الأفراد في كل المجتمعات على عكس القوانين الوضعية التي تتغير وتتبدل حسب متطلبات الأفراد ومصالحهم فالإسلام له صفات يتميز بها فمن صفاته الدوام والإلزام والعمومية والشمول والإيمان والمحبة والتسامح والعدالة . وهو يستطيع بمشيئة الله أن يعالج أي مشكلة اقتصادية أو اجتماعية أو إدارية بما لا يخالف أي نص قرآني ولا يتعارض وأحكام السنة .

— ولعل من أبرز الحقائق الملموسة أن الشريعة الإسلامية قد عالجت مشكلات الإدارة مع التزامها بأحكام القرآن والسنة المطهرة وهما المصدران الرئيسيان للإدارة والتشريع في الإسلام .

فمن الأمور التي تثير العجب والإعجاب ذلك التقدم في الفكر الإداري الإسلامي لما تميز به من خصائص استمد قوتها من الدين الذي يبعث الضمير الإسلامي ويوقظه فتنعكس آثاره على الفرد صدقاً في القول وإخلاصاً في العمل ومحبة بين الناس لتقوم مقام القانون .

— إن تناول هذا الرأي بالعرض والتحليل بالضرورة مقارنة ما كان من نظم على عصر ماقبل الاسلام وما كان يسود المجتمع في الجزيرة العربية في ذلك الوقت من قيم وما كان قائماً بعد ظهور الإسلام . ثم الربط بين

الأسس والمبادىء التي تقوم عليها الإدارة في الإسلام وتلك التي تقوم عليها الإدارة العصرية والتدليل قدر المستطاع على صحة هذا الربط مستنداً في ذلك إلى المبادىء العلمية والقواعد التطبيقية .

مرحلة ماقبل الإسلام :

— إذا تناولنا عصر ماقبل الإسلام نجد أن العرب كانوا قبائل متفرقة دينهم الوثنية وعبادتهم الأصنام وكان المجتمع مجتمعاً قبلياً يعيش أهله في حروب لاتنتهي . مجتمع كل قبيلة فيه دولة لاتنتهي فيها الحروب . مجتمع ينهب فيه القوى للضعيف مجتمع العدوان . لايخضعون لدين ولا يعترفون بسلطان تسودهم الجهالة وتتفشى فيهم الرذيلة . يتوارثون الزوجات ويتعاملون في الأماء والعبيد .

وكان الناس يتسابقون إلى جمع المال من أيسر السبل فتفشى فيهم الربا وانتشرت تجارة الرقيق في مجتمع مفكك الأوصال . لايربط أهله قومية فكان أشدهم هيبة أكثرهم عدداً ومالا ، لاحقوق للمرأة بينهم ولا وزن لها عندهم . الزوجات متاع يهبه الزوج لمن يشاء ويمسك منه من يشاء . لا إرادة لهن فأمرهن موكول للرجال يتزوجن منهن من يشاء بلاحدود ولاحقوق لهن ويسرحون من يشاء .

مرحلة ظهور الإسلام :

وهكذا كانت حال الجزيرة العربية عندما أرسل الله سبحانه وتعالى محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه نبياً ورسولا ، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذنه وليعلمهم الكتاب والحكمة ، بعثه الله تعالى بدين جديد يدعو إلى إعبادة الله الواحد الأحد وترك عبادة الأوثان . بعثه بالحق مبشراً ونذيراً فقاومته قريش دفاعاً عن معتقدات ورثها الناس عن آبائهم

وأجدادهم، وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » .

ومن أجل هذا بدأت الدعوة سرية مبتدئاً بأهله وعشيرته وظل هكذا ثلاث سنوات حيث جاءه أمر الله بالجهر بالدعوة فذهب إليهم حيث يقيمون وجمعهم ليعلن لهم أنه نبي هذه الأمة وإنه يدعوهم بأمر الله إلى التوحيد وعدم الشرك بالله فما كان ينتهي من مقاله حتى ثارت ثائرة قريش ولم يصبروا حتى يتبينوا حقيقة ما يدعون إليه كذبوه وعاندوه وآذوه . وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يقابل عنادهم بصبر جميل وحلم عظيم .

واستطاع صلوات الله وسلامه عليه أن يحول الجزيرة العربية من الوثنية إلى التوحيد في أقل من ربع قرن . وأن ينشر دعوته حتى عمت الدنيا بأثرها شرقها وغربها وشمالها وجنوبها وأن يعطي الكثير من مناهج حياة من آمن برسالة صاحب الدعوة عليه الصلاة والسلام واهتدى مهدياً حتى جاء نصر الله والفتح ودخل الناس في دين الله أفواجاً وتوحد العرب تحت راية لا إله إلا الله وتمكن الرسول عليه الصلاة والسلام أن ينظم الحياة السياسية والاجتماعية للمجتمع الجديد كما نظم العبادات والمعاملات جنباً إلى جنب . فأقام العدل ونشر الفضيلة وهذا الفضل من الله أسبغه الله على رسوله — حدد أهدافه ووضع سياساته — ثم كلف رسول الله ﷺ بالتنفيذ بما أتاه من فطنة وحكمة وما خصه به من فضل بعثه للناس كافة وللعالمين رحمة « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

والسؤال الذي يثور بعد ذلك هو كيف كانت قيام هذه الدولة التي ترامت أطرافها في وقت لم يكن للإدارة فيه مفهوم محدد وما هي القواعد والأسس التي كانت تحكم إدارة رسوله وما هي التنظيمات التي كانت تتكون منها وكيف تطور الفكر الإداري الإسلامي مع تطور الدولة الإسلامية .

مفهوم الإدارة فى الإسلام :

إذا كانت الإدارة تعنى القدرة على استخدام الإمكانيات المادية والبشرية المتاحة بأقصى كفاية لتحقيق أهداف معينة ومحدودة فى حدود الامكانيات المتاحة فإن الادارة فى الاسلام لم تخرج عن هذا المفهوم. وإن لم يكن لها مبادىء علمية معروفة وإنما كانت تعتمد على المهارة البشرية وحسن تقدير الأمور حكمها فى ذلك حكم الادارة فى ذلك الوقت مستندة إلى أحكام القرآن الكريم وتوجيهات السنة الشريفة .

وإذا كان الفكر الادارى يمثل المبادىء والنظريات التى تحكم الادارة سواء كانت هذه الادارة تكويناً للسياسة أو إنجازاً لها ، وما تشمل عليه من عناصر ووظائف ، فإن الفكر الادارى الاسلامى مستند فى مبادئه إلى مصادر الفقه الاسلامى ويقوم على أسس من القيم ويمتد إلى سائر المجالات الادارية بمفاهيمها المختلفة بما فيها المفهوم الاجتماعى . الذى يمثل العلاقات الانسانية التى تعنى تأكيد القيم الانسانية فى الادارة . هذه القيم التى يحاول علماء الادارة المحدثون الأخذ بها كمدخل جديد فى الادارة الحديثة . ولم يصل بعد إلى ماوصل إليه الاسلام فى هذا المجال علماً وتطبيقاً من أربعة عشر قرناً ونصف :

إن الإلتزام بالمنهج الإسلامى من المبادى . الأساسية التى تقوم عليها الإدارة فى الإسلا ولقد حقق هذا الإلتزام تقدما سريعا عن جانب المسلمين صاحب انتشار الدعوة الإسلامية فأضفى الإسلام على الإدارة صبغا دامت بين الفكر الإدارى الإسلامى والفكر الإدارى المعاصر .

إن عناصر العملية الادارية وإن لم تكن معروفة فى صدر الاسلام المتعارف عليها فى الادارة العلمية الحديثة الا أنها كانت تستخدم بمفهومها العلمى فالحكم كان يتبع وهو يمارس وحياته أحدث ماوصلت إلية الادارة

العلمية المعاصرة من أسس ومبادىء ولو لم يسبق دراستها كما أنه لم يحصر نفسه فى إستنباط أسس ومبادىء يسير عليها ويلتزم بها ويلزم غيره بها بل قد يعتمد على قدرته فى تكيف معرفته بالأمور في إيجاد الحلول المناسبة لكل مايعرض من عقبات أو يصادفه من مشكلات بحكمه فى ذلك كتاب الله وسنة رسوله .

أما إدارة الأعمال فلم يعرفها الاسلام كعلم منفصل بذاته حيث كانت متروكة للأفراد لعلاقتها بالمعاملات التى ترك الاسلام أمر تفويضها للأفراد فيما يمارسون من أعمـــال محكومين فى معاملاتهم بما اشتمل عليه القرآن الكريم من أحكام وما تضمنته السنة من إيضاح. هذا بجانب أن نشأة إدارة الأعمال كانت وليدة التقدم الفنى واتساع مجالات الصناعة وكبر حجم المشروعات والاستفادة من نظام الانتاج الكبير وانفصال إدارة المشروعات عن رأس المال وهذه الأمور جميعا لم تكن معروفة في صدر الاسلام .

وإذا كانت الادارة تسعى دائما إلى تحقيق هدف معين فمن طريقها وبواسطتها تتحقق الأفكار والآمال إلى واقع ملموس فإن هذه الادارة تشمل مجموع العمليات والاجراءات التى يتم بواسطتها تتحقق الأفكار ويتم الربط بين الفكر والهدف بأفضل الوسائل وفى حدود الموارد البشرية والمادية المتاحة .

والادارة العامة هى مزيج من القوانين واللوائح والتعليمات والتطبيقات والعلاقات التى تسود الدولة فى وقت معين بغض تحقيق أهداف الدول ومن هنا ينشأ الاختلاف بين دساتير الدول وقوانينها التى تنظم العمل تنفيذا لما تضمنه من سياسات تتفق وظروف كل ما يصلح لدولة أخرى . كما أن مايصلح لدولة فى وقت معين قد لا يصلح لها فى وقت آخر .

التقنين الاسلامى صالح لكل زمان ومكان :

فإذا كان الله سبحانه وتعالى هو صانع هذه القوانين كأحسن ما يكون التشريع شمولا وعمومية دواماً واستقراراً لا تبديل ولا تغيير.. ومرونة تجعله صالحاً لكل زمان ومكان ، إذا كان الرسول ﷺ هو القائم على تطبيقه ومن بعده الخلفاء الراشدين فى أمانة وصدق فليس بعد ذلك شك أن ماساه تلك العصور من حكم وإدارة يسمو على ما جرى وما يجرى عليه العمل فى أى من العصور فما ضل من حكم بالقرآن والسنة من أقوال الرسول ﷺ فى خطبة الوداع « قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا بعدى أبداً أمراً بيناً كتاب الله وسنة رسوله » صدق رسول الله .

فما أحوجنا أن نعود إلى تراثنا الاسلامى الأصيل نتهل من عذب رحيقه مايصلح أمورنا ويهدى نفوسنا ويبدينا الصراط المستقيم ويقينا عن النقل من الغرب أو الشرق إلا ما يناسب مذهبنا ويتفق وظروفنا فنحن أعرق منهم حضارة وأسبقهم علما وبذلك يصير للاسلام مجـــده وتصير للأمة بالاسلام قوتها .

بقلم/إبراهيم عبد الله البتانونى
مراقب الشئون المالية
بالكلية